دَوَافِعُ النَّقْدِ الاجْتِمَاعَيِّ السَّاخِرِ بَينَ الغَزَال وَالمعَرِّيّ

هيثم جمال السيد الصديق
باحث ماجستير بإشراف
اد/ محمد محمود أبوعلي

عدد ٥٧ يوليو ٢٠٢١ م

مُقَدِّمَة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد ؛ فإنَّ العِلاقَةَ بَينَ الأَدَب والمُجْتَمَع علاقةٌ جِذْرِيَّة مُتَمَاسِكَة ؛ فالأدبُ مرآةُ عَصْرِهِ ، والشعراءُ أبناءُ بيئتهم – منها ينهلون ، وإليها يلتفتون – ولا يَتَوَلَّد أدبٌ إلا في ظِلَّ الجماعة ، ومِنْ أجلها ، وكيف يعيش الشاعر في مجتمع دون أن يتأثر به ؟ إنَّهُ يستمدُّ انفعالَه من تجارِبه في بيئته ، ويقتبسُ صُوَرَهُ وقِيَمَهُ من الثقافة التي تَلَقَّاهَا منذ الصِّغَر ؛ فهو يجمع بين هُمُوم الذات وهُمُوم الجماعة ، ويروم كشف الواقع واستشراف المستقبل ، متنقلاً من التفسير إلى التغيير ، وبمعنى آخر إنَّ وَعْيَ الشَّاعِرِ مُرْتَبِطٌ بوعيه بالجماعة ، ومتضمنٌ له .

ولا يمكن – بِحَال – أن ينفصل الأديب عن شَخْصِيَّة أُمَّتِهِ وقضايا مجتمعه ، لذا يُعَدُّ موضوع النقد الاجتماعيّ من الأهمية بمكان ؛ لأنَّ الأدبَ – قبل كل شيء – ظاهرة اجتماعيَّة ، وغايته التعبير عن هُمُومِ المُجْتَمع ؛ بُغْيَةَ إصلاحه ، وتقويم اعوجاجه .

ويهدف النقد الاجتماعيّ إلى بيان الصلة بين النص والمجتمع الذي نشأ فيه ، ويسعى لتفسير الظواهر الأدبية من خلال المجتمعات التي أنتجتها ؛ فهو ينطلق من نظرية الفن للمجتمع ، تلك التي تُوَظِّف طَاقات الفنان لخدمة مجتمعه وبيئته ، ويؤمن بأنَّ للفن رسالة إنسانية سامية تتمثل في هداية أفراد المجتمع إلى المُثُل العُلْيَا .

وبهذا فإنَّ النقد الاجتماعيّ يُحَقِّقُ مبدأ التواصل مع المجتمع ، محاولاً إبراز مكامن الخلل في الحياة الاجتماعية ، ويعتمد – في ذلك – على النظرة الشمولية والرؤية الكُلِّيَّة .

وقد ظهر عَبْرَ عُصُور الأدب العربيّ كثيرٌ من الشعراء ، أَثْرَوه بإبداعهم الفَنِيّ ، ومنهم مَنْ تناول قضايا اجتماعيَّة ، كالغَزَال والمَعَرّيّ ، اللذينِ حَمَلا على عاتقهما مسؤولية إيقاظ المجتمع من سُبَاتِهِ ، وشَعَرَا بأنَّ لديهما رغبةً مُلحَّة في الإصلاح ، نابعةً من إحساسهما بمرارة الفساد المنتشر في المجتمع .

لقد آمن الغَزَال والمَعَرّي بدور الشعْر المُهِمّ في تناول المشكلات الاجتماعيَّة ؛ فهاجموا القُضَاة الفَاسِدِينَ الذين مالوا عن الطريق المستقيم ، والفقهاء المُرَائِينَ المُتَكَسِّبِينَ بدينهم ، وثاروا على الرذائل الخُلُقية التي تَنْخَر فِي كِيَان المجتمع .

أهداف البحث :

– عرض دوافع النقد الاجتماعيّ الساخر بين كُلٍّ مِنْ : الغزال والمعري .

– بيان أوجه التلاقي المشتركة بينهما فيما يتعلق بدوافع النقد الاجتماعي الساخر ؛ حيث نجد أَوجُهَ تلاقٍ تَجْمَعُ بين الشاعرين في أدبهما الساخر ونقدهما للمجتمع .

منهج البحث :

اعتمدت هذه الرسالة على المنهج الاجتماعيّ ، الذي يرى أنَّ الشِّعْرَ مِرْآةً تعكس واقع المجتمع ، واستعانت بالمنهج النفسيّ الذي يُخْضِعُ النص للبحوث النفسيَّة ، ويحاول الانتفاع من النظريات النفسيَّة في تفسير الظواهر ، إلى جانب المنهج التاريخيّ لتَتَبُّع مسار الأحداث والشخصيات .

وقد جاء البحث في تمهيد وفصل وخاتمة على النحو الآتي :

فالتمهيد يتناول : (مصطلح النَّقْد الاجْتِمَاعِيّ – مصطلح السُّخْرِية – التَّبَادُل الثَّقَافِيّ بَينَ الأَنْدَلُسِ وَالمَشْرِق – التَّوَافُق الفِكْرِيُّ بَينَ الغَزَال والمَعَرّيّ) .

أمَّا البحث فعنونته بـ (دَوَافِع النَّقْدِ الاجْتِمَاعَيّ السَّاخِرِ بَينَ الغَزَال وَالمَعَرّيّ) ، وانقسم إلى مبحثين : المبحث الأول : الدَّوَافِع الشَّخْصِيَّة ، والمبحث الثاني : الدَّوَافِع الخَارِجِيَّة[١١٨] .

تمهيد :

أولاً : مصطلح النَّقْدُ الاجْتِمَاعِيُّ (Social Criticism) :

النقد الاجتماعيُّ هو « محاولة الأديب أن يضع يَدَهُ على ما يَظُنُّهُ موضع الداء في محاولة منه لوصف الدواء »[١] ، ومهمة الشاعر تنحصر في أمرين : الأول : قيامه بدور الخطيب الذي تنبه للفساد السائد ؛ فأسرع ليتفادى الأمر ، والآخر : الإشارة إلى موطن الفساد في المجتمع [٢] ، ومِنْ ثَمَّ لم يَعُدْ دَور الشاعر يقتصر على التعبير عن ذاته ووجدانه ، وإنما صارت له مُهِمَّة من نوعٍ آخر ، وهي الكشف عن مثالب المجتمع ونقده ؛ بهدف الوصول إلى مُجْتَمَع مثاليّ .

وعلاقة الأديب بأُمَّتِهِ ومجتمعه علاقة وطيدة ؛ « فهو عضو في مجتمعٍ ، وفرد من أُمَّةٍ يتفاعل ويعطي ، ويملك من جوانب الإبداع الأدبيّ ما يجعل دوره في حياة أُمَّتِه مُهِمًّا ؛ لهذا التلاحم بين الأديب وأدبه من جانب ، وبينه وبين مجتمعه وأُمَّتِهِ مِنْ جَانِبٍ آخر ... لذا أشادوا بالشعر الذي يبني شخصية الأُمَّة ، ويرقى بفكرها وثقافاتها وأخلاقها ، وأظهروا معارضتهم – التي تصل إلى حد العقاب أحيانًا – للشعر الذي يُسْهِمُ في هدم شخصية الأُمَّة ، ويَهْبِط بِفِكْرِهَا وثقافتها وأخلاقها » [٣].

وبهذا يتضح أنَّ النقد الاجتماعيّ لا يسعى لإطراب السادة والحُكَّام بسماع آيات الثناء ، وإنما شُغْلُهُ الشَّاغِل إبراز الوجه الحقيقيّ للمجتمع بما فيه من مثالب وعيوب ، ومحاولة تقويم اعوجاجه وعلاجه ، وتهذيب أخلاق الناس وإصلاحها .

ثانيًا : مصطلح السُّخْرِية (Sarcasm) :

تعني السخرية النقد المُضْحِك ، ولكنها – في حقيقة الأمر « تروم هدفًا آخر غير الإضحاك ، وهو الإيلام ، أو الاستعلاء ، أو الانتقام ، أو التوجيه ، أو الإصلاح ، وذلك رَهْنٌ بنِيَّة الساخر وأسباب سخره ؛ فربَّما يسخر الأب من ابنه ؛ ليوجِّهَهُ ويُصْلحَهُ » (٤) .

وتعتمد السخرية على التقاط العيوب ، والمبالغة في تصويرها بطريقة مضحكة ، وهي تتصل بالأدب اتصالاً وثيقًا ؛ حَتَّى نُظِرَ إليها على أنها فنٌ أدبيٌّ بحاجة إلى مهارة وذكاء ؛ « فالسخرية فنٌ لا يُؤْتَاهُ إلا لوذعيٌّ بصيرٌ بمداخل الكلام ، ومسارب الفِكْر » (٥) .

وهي وثيقة الصلة بالمجتمع ؛ فقد استوجب تطوُّر الحياة الاجتماعية ظهور هذا اللون من التعبير ، كما أنها وثيقة الصلة بالنقد الاجتماعيّ ؛ فهي « إحدى وسائل الرفض التي يستخدمها المُبْدِعُونَ في التعامل مع الحياة ؛ من أجل التمرُّد على ما فيها من شرور ومفاسد ... وهي لا تسترعي اهتمام الباحثين في مجال الإبداع الأدبيّ فحسب ، بل تجذب – أيضًا – الباحثينَ في مجال علم النفس ، وتشُقُّ جذورها داخل الفكر الفلسفيّ ؛ لتهتدي منه إلى طريقها نحو الأدب بوجهٍ خاصّ ؛ فهي غرض يناسبه الهزْل ، والضحك ، والعبث ، والهجاء » (٦) .

إنَّ السخرية تستهدف كشْف العيوب ؛ رغبة في إصلاحها ، كما أنها لا تتأتَّى لكلِّ الشعراء ؛ فهي تحتاج إلى ثقافة واسعة ، وخبرات متعددة ، ورُوح مرحة ، وذكاء لمَّاح .

ثَالِثًا : التَّبَادُلُ الثَّقَافِيُّ بَينَ الأَنْدَلُسِ وَالمَشْرِق :

يُعَدُّ التَّوَاصُلُ بين الشعوب من الظواهر التي لها دور كبير في تطوير الفكر الإنسانيّ ، ومن أمثلة هذا التواصُل الحضارة الإسلاميَّة في الأندلس ؛ حيث اتصلت ببلاد المشرق ، ونهلت من علومها ، عن طريق الرحلات

المُتَبَادَلَة بين الأندلس والمشرق لِطَلَبِ العِلْم .

ولعلَّ من أهمّ سُبُل التواصل الثقافيّ مَوسِم الحَجّ الذي يجتمع فيه المسلمون من شتَّى البقاع لا للحج فقط ، وإنما أيضًا لطلب العلْم والتفقُّه في الدين ؛ حيث كانت تقام مجالس العِلْم والأدب في الحرمينِ الشريفينِ ؛ فكَثُرَتْ رحلات الأندلسيين للحج والتعلُّم .

ولم تقتصر الرحلة على أهل الأندلس فحسب ، وإنما رحل – أيضًا – بعض المشارقة إلى الأندلس ، واتخذوها سَكَنًا لهم .

وغيرُ خَافٍ حضور الأندلس في أذهان المشارقة ، ومنهم **المَعَرّيّ** (ت٤٤٩هـ) ؛ « فلقد حضرت الأندلس في ذاكرة أبي العلاء حضورًا مناسبًا ، وقد تجلَّى ذلك بطرق عِدَّة ، كان أهمُّها الوافدين إليه من تلك البلاد : علماءَ طالبين التزوُّد من عِلْمِهِ الجَمّ وأدبه الواسع ، وطُلاَّب راحلين إليه بقلوب متلهفة للعلم والتعلُّم ، وكان من عادة أبي العلاء أن يسأل طلابه عن بُلْدَانِهِمْ ، وآدابها ، وشعرائها ، وأبرز المظاهر الحضارية فيها » [٧] .

وقد انبهر المشارقة بشعراء الأندلس ؛ فردَّدوا أشعارهم ، وشُهِر في بلاد المشرق عدد من شعراء الأندلس ، وذاع صيتهم بين أهلها ، ومنهم **يَحْيَى بْن حَكَمِ الغَزَال** (ت٢٥٥هـ) ؛ فقد « حُكِي أنَّ تاجرًا يُدعى عتبة قال : وجَّهني الأمير الحَكَم (ت٢٠٦هـ) وابنه عبد الرحمن (ت٢٣٨هـ) إلى المشرق ، وكان عبد الله بن طاهر (ت٢٣٠هـ) واليًا على مصر من قِبَل المأمون العباسي (ت٢١٨هـ) ؛ فلقيه بالعراق ؛ فسألني عن قصيدة الغزال التي مطلعها : (الكامل)

خَرَجَتْ إِلَيكَ وَثَوبُهَا مَقْلُوبُ وَلِقَلْبِهَا – طَرَبًا إِلَيكَ – وَجِيبُ[٨]

وعمَّا إذا كنت أحفظها ؛ فقلت : نعم ؛ فاستنشدنيها ؛ فأنشدته إيَّاها ؛ فسُرّ بها ، وكتبها ، ونِلْتُ بها حظًّا عنده »[٩].

وبهذا نجد أزونَّ التواصُلَ بين الأندلس والمشرق لم ينقطع على الرغم من وجود حدود فاصلة بين البلدين ؛ فلم يكن فِكْر البلدينِ بمعزلٍ عن نظيره ؛ لذا كان التبادلُ الثقافيُّ فِي أَوجِ قِمَّتِهِ بينهما .

رَابِعًا : التَّوَافُقُ الفِكْرِيُّ بَينَ الغَزَال والمَعَرّيّ :

لا نستطيع أن ننكر وجود أوجه كثيرة تشابَهَ فيها كِلا الشاعرين ؛ فهناك قواسم مشتركة بينهما [١٠] ؛ فكلاهما **حاول معارضة القرآن الكريم** ؛ فقد حاول **الغَزَال** معارضة سورة الإخلاص ؛ « فلما رام ذلك أخذته هيبة وحالة لم يعرفها ؛ فأناب إلى الله ؛ فعاد إلى حاله » [١١] ، إنه يَسْلُكُ بذلك سُلُوكَ مَن اختبر مقدرته البلاغيَّة الشخصيَّة قياسًا على القرآن الكريم ؛ فلم يستطع بُلُوغَ ما أراد [١٢] .

وقد حاول **المَعَرّيّ** معارضة القرآن الكريم في كتابه (الفصول والغايات) ، وقد قيل لأبي العلاء عندما عَارَض القرآن : « ما هذا إلا مليح إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن ؛ فقال : حتَّى تصقله الألسن أربعمائة سنة ، وعند ذلك انظروا كيف يكون » [١٣] .

فهذا يثبت أنه حاول معارضة القرآن ، وربما دفعه إلى ذلك الإعجاب بنفسه ، وشعوره بأنه بَلَغَ فِي العِلْم غايته ، إلا أنه عاد في آخر حياته ، واعترف بعظمة القرآن ، وعجْز الإنسان عن معارضته [١٤] ، شأنه في ذلك شأن الغَزَال .

وكلاهما مجَّد العقل ، واحتكم إليه ؛ فقد مجَّد **الغَزَال** العَقْلَ ، وبيّن أنَّ صلاح الإنسان في صلاح عقله ، وهلاكه في فساد عقله وجعل العاقلَ هو الرجل الفاضل ، يقول : (السريع)

إِنْ صَحَّ صَحَّ المَرْءُ مِنْ بَعْدِهِ ... وَيَهْلِكُ المَرْءُ إِذَا مَا هَلَكْ

فَإِنَّ إِمَامَ سَالَ عَنْ فَاضِلٍ ... فَادْلُلْ عَلَى العَاقِلِ لا أُمَّ لَكْ [١٥]

أما **المَعَرّيّ** فقد بالغ في تمجيد العقل ، وأعلى من شأنه ؛ فهو عنده الهادي إلى الحقيقة ، والدال على الخير والحق ، والمُنْقِذ من الشر والباطل ، وهو الإمام المعصوم الذي يرشد الإنسان إلى ما يأتي ويذر ، ويجلب الرحمة لكل مَنْ تبعه ، يقول : (الخفيف)

يَرْتَجِي النَّاسُ أَنْ يَقُومَ إِمامٌ نَاطِقٌ فِي الكَتِيبَةِ الخَرْسَاءِ
كَذَبَ الظَنُّ لا إِمَامَ سِوَى الـ ـعَقْلِ مُشِيرًا فِي صُبْحِهِ وَالمَسَاءِ
فَإِذَا مَا أَطَعْتَهُ جَلَبَ الرَّحـ ـمَةَ عِنْدَ المَسِيرِ وَالإِرْسَاءِ (١٦)

ويدُلُّ هذا على قيمة العقل عنده ، ولعلَّ ذلك يرجع إلى تأثره بالفلسفة اليونانية ، وذكائه الفطريّ ، وكثرة تأمله .

دَوَافِعُ النَّقْدِ الاجْتِمَاعَيّ بَينَ الغَزَال وَالمعَرّيّ

المَبْحَثُ الأَوَّلُ : الدَّوَافِعُ الشَّخْصِيَّةُ :

أ) عِزَّة النفْس :

أولاً : الغَزَال :

عدَّ الغزالُ نفسَه ذا قيمة ، ودافع عن حقوقه ، وعبّر عن مشاعره ووَثِقَ بنفسه , ولعله اكتسب هذا التقدير من خبرات النجاح التي مَرَّ بها ، واستند في – حُكْمِه – إلى نظرة الآخرين له ، وشعوره الذاتي(١٧) ، يقول : (السَّريع)

وَإِنَّنِي فِي النَّاسِ ذُو حُرْمَةٍ عَظِيمَةِ الشَّأْنِ وَذُو قَدْرِ (١٨)

وقد ترجم الحُمَيديّ (ت٤٨٨ هـ) في كتابه (جُذوة المُقتَبِس) للغَزَال ، ووصفه وصفًا يدل على جلالة قدره عند الأمراء ؛ فقال فيه : « رئيس ، كثير

القول ، مطبوع النظم في الحِكَم ، والجِدّ ، والهَزْل ، وهو مع ذلك جليل في نفسه وعلمه ومنزلته عند أمراء بلده » [١٩] .

وهناك كثير من المواقف التي تدل على عِزَّة نفسه وإبائه ؛ فهو لم يسأل أحدًا مِن العامة شيئًا ، يقول : (مجزوء الرَّمل)

لا تَسَلْ مَنْ كَانَ سَوَّا لاً وَإِنْ أَثْرَى وَأَثْرَى [٢٠]

يقول البنداق عنه : « ولم يذلَّ نفْسه ، واحتفظ حتَّى نهاية أيَّامه بعِزَّة النفْس التي تميَّز بها الإنسان المُسْلِم » [٢١].

لقد تبوأ الغزال منزلة عالية في مجتمعه ، واعترف له بالفضل الخاصَّة قبلَ العَامَّة ؛ فَقَرَّبَهُ الأمراءُ ، وجعلوه موضع الثقة والتقدير .

ثانيًا : المَعَرّيّ :

تميَّز المَعَرّيّ بعدة صفات خُلُقِيّة خَلَّدت ذكره ، من أهمها : عِزَّة نفسه ؛ فقد « كان أنوفًا ، عزيز النفْس ، صُلْب الإرادة ، لم يَقْبَلْ عَطِيَّة من أحد – سوى ما ناله على قصائده الأولى – ولا لان فيما اعتقد أنه الحق ، كاتباع العقل وإباء الخضوع ، كما يَخْضَعُ الناسُ لَهُ عَادَةً من طريق الدين أو المجتمع أو الدولة » [٢٢] .

وكثيرٌ من شعره يؤكد احترامه لنفسه وشعوره بقيمته الإنسانية الرفيعة ، ومن ذلك قوله : (البسيط)

لَمَّا رَأَيتُ سَجَايَا العَصْرِ تُرْخِصُنِي رَدَدْتُ قَدْرِي إِلَى صَبْرِي فَأغَلا بِي [٢٣]

يشير إلى عِزَّة نفسه ؛ فهو رجل أَبِيٌّ ، يعرف قَدْر نفْسه ، ويأبى أنْ تُمسَّ كرامته بأذى ، وإذا ما كانت سجايا عصره تُرخِصُه وتَحُطُّ من شأنه فما عليه إلا أن يعود إلى نفسه ، ويضعها في مكانها اللائق به ، متجملاً بالصبر.

صحيحٌ أنَّ المعري كان أعمى ، ومشوَّه الوجه بآثار الجدري إلا أنَّ ذلك

الثوب الرَّث الذي كُسِيَ به حَوَى نفسًا كبيرة [٢٤] .

وغير خافٍ أنَّ كثيرًا مِمَّن عاصروه مِن العلماء والشعراء استمتعوا بالحياة وأطايبها وملذاتها ؛ فما كان منه إلا أن أنكر عليهم أفعالهم ، ونَقَدَهُمْ ؛ بهدف إصلاح المجتمع ، والارتقاء به .

ب) الإِحْسَاسُ بِالغُرْبَةِ :

أولاً : الغَزَال :

انسحب الغزال في آخر حياته من الحياة العامة ، « وَوَقَفَ وقفة مع نفْسه ، محاولاً إقامة حوار معها ؛ ليكشف عن نوازعها ، وما يصطرع بداخلها ، ودفعه إلى ذلك شعوره بالعجز ، وعدم القدرة على التكيف ؛ فآثر الهروب من الواقع ، وعوائق إشباع الدوافع والحاجات ، ومصادر التوتر والقلق ، ومواقف الإحباط والصراع الشديد ، وجعل شعره تعبيرًا عن تأملاته الفكرية في الحياة والموت ، واستشرافه للعالم الآخر » [٢٥] ، يقول : (السريع)

كُلُّ امْرِئٍ يَسْعَى إِلَى شَأْنِهِ وَمَا أَرَى البُنْيَانَ مِنْ شَانِي[٢٦]

وأدَّى إحساسه بالغربة إلى السخرية من الآخرين ، والاستخفاف بالدنيا ، الذي يُعَدُّ مظهرًا « للشعور الحادّ بفراغ المتعة وزوالها ، ونتيجة للحَيرة الشديدة التي مُنِيَ بها أمام أحداث الوجود والعدم ، والتناقض الشديد بينها ، والرد الصامت العاجز عن التساؤلات الحائرة عن سِرّ الوجود وسر العدم ، وموقف الإنسان منها ، ودوره في البداية أو النهاية ، وعِلّة ذلك كله »[٢٧] ، يقول : (الخفيف)

فَإِذَا مَا نَظَرْتُ فِي عُرُضِ النَّا سِ كَأَنِّي أَرَاهُمُ فِي الظَّلامِ

وَكَأَنَّ الَّذِي أُصِيبُ عَلَى الأَيـ ـيَامِ شَيءٌ أَصَبْتُهُ فِي المَنَامِ [٢٨]

إنَّ الناس في نظر الغزال يتخبطون في الظلمات ؛ لذا أحسَّ بالغربة النفسية وهو يعيش بينهم ؛ فلجأ إلى نقدهم .

ثانيًا : المَعَرّيّ :

أحسَّ المعري بالغربة إحساسًا قاسيًا داخل مجتمعه ، وقد نتجت هذه الغربة من « مواقفه من الطبيعة والكون ، وفهمه للحياة والموت ، وطبيعة العلاقات الاجتماعية ، ومعرفة الناس بالخير والشر ، علماً أن الخير مذهبه ، والعقل مبدؤه ، والإيمان بالفَنَاء سجيته ؛ إذ كل إنسان مآله إلى التراب ، والبقاء لله » (٢٩) .

إنَّ شُعُورَ المَعَرّيّ بالغربة ناتج من شعوره بعدم قدرته على مُجَارَاةِ ما يجري في مجتمعه ، الذي يعيش فيه أُنَاسٌ كَثُرَ فيهم النفاق والكذب والغِش ؛

ولذا كان شديد الحذر منهم ، ساخطًا عليهم بقدر غير قليل ؛ لسوء أخلاقهم ، وفساد طبعهم ، وفى ذلك يقول : (البَسِيط)

أَمَّا الأَنَامُ فَقَدْ صَاحَبْتُهُم زَمَنًا فَمَا رَضِيتُ مِنَ الخِلانِ مَصْحُوبَا (٣٠)

لمَّا خالفه الناس في طباعه ، اعتزلهم جميعًا ؛ فكان لا يأكل إلا وَحْدَه منفردًا (٣١) ، وكذا شعر بأنه غريب عنهم ، وعن مجتمعهم ، وغريب عن نفْسه .

وقد انفرد أبو العلاء بِحُبِّ العزلة ؛ فشعره وسيرته يدلانِ على أنه آثَرَ العزلة على الاجتماع ، وكان ذلك طبعًا متأصلاً فيه ، يقول في رسالةٍ إلى خاله واصفًا نفْسه بأنه : « وَحْشِي الغَرِيزَة إنْسيّ الوِلادَة » (٣٢) .

لمَّا امتلأ مجتمعه الذي يعيش فيه بالكذب والغش والخداع ، ولم يستطع مجاراة مَنْ فِيهِ ؛ لِسُوءِ طِبَاعِهِمْ شَعَرَ بالغربة ؛ فَلَزِمَ بَيتَهُ .

ج) التَّعرُّض لأَزمَة :

أولاً : الغَزَال :

أُصِيبَ الغزال بالعُنَّة (Impotence) في الخمسين من عمره ، تلك الواقعة التي غَيَّرَتْ مَسَلَكَهُ في الحياة ، وأثارت في نفسه العواطف المتناقضة والأهواء المتضاربة ؛ فأصعب شيء عنده هو إعراض النساء عنه [٣٣] ، يقول : (السريع)

لَمْ تَرْضَ أُولائِي وَلا عَصْرِي وَلا عَشِيَّاتِي وَلا فَجْرِي
فَأَصْبَحَتْ تَدْعُو عَلَى نَفْسِهَا بِالتُّعْسِ وَالوَيلاتِ وَالتَّبْرِ
وَابْتَعْتُهَا بَيضَاءَ بَهْنَانَةً حُسَّانَةً بَرَّاقَةَ الشَّمْرِ
فِي عَبْرَةٍ مَا يَنْقَضِي فَيضُهَا كَأَنَّمَا تَغْرِفُ مِنْ بَحْرِ
وَنَافِذٍ مِنْ قَولِهَا وَخْزُهُ وَخْزَ الأَشَافِي ، أَو حُمَى الدَّبْرِ [٣٤]

إنَّ الغزال مهما حاول أنْ يُخفي ما أُصيب به فلن يستطيع إلى ذلك سبيلاً ؛ « فالرغبات الجنسيَّة المكبوتة تجد طريقها – بقصد أو دون قصد – إلى الشعر » [٣٥] .

ولقد كان لهذه الأزمة كبير الأثر في نفسية الغزال ؛ فقد أصابته بِجُرْحٍ يَصْعُبُ عِلاجَهُ ، وجعلته فيما بعد يَنْفُرُ من المرأة ويهجوها .

ثانيًا : المَعَرّيّ :

مَرَّ المَعَرّي بثلاث أزمات كانت كلٌّ واحدة منها كفيلةٌ بِتَمَرُّدِهِ على المجتمع ونقده :

الأزمة الأولى : عَمَاهُ :

ذكر ياقوت الحَمَوِيّ أنَّ المَعَرّي اعتَلَّ بالجُدَرِيّ الذي ذهب فيه بَصَرُهُ سنة سبع وستين وثلاثمائة [٣٦] ، وذكر ذلك ابن خَلِّكَان (ت٦٨١هـ) ؛ فقال : « غَشَى يمنى عَينَيه بَيَاضٌ ، وَذَهَبتْ اليُسْرى جُمْلَةً » [٣٧] ، وقال الصَّفَدِيّ : « جُدِرَ من السنة الثالثة من عمره وعمي » [٣٨] ، وكان المَعَرّيّ نفسه يقول : «

لا أَعْرِفُ من الألوان إلا الأحمر لأني أُلبِستُ في الجُدَرِيّ ثوبًا مَصْبُوغًا بالعُصْفُر ، لا أعقل غير ذلك » [٣٩].

وللمَعَرّي شِعْرٌ كثير في عماه يعكس إحساسه الشديد بهذه العاهة ؛ فقد بيَّن عدم قدرته على السير – ليلاً أو نهارًا – لأنَّهُ أعمى والطُّرُق مُظْلِمَةٌ في وجهه ، يقول : (الطويل)

وَمَا بِي طِرْقٌ لِلمَسِيرِ وَلا السُّرَى لأَنّيَ ضَرِيرٌ لا تُضِيءُ لِيَ الطُّرْقُ[٤٠]

وقد دَفَعَهُ عماه وسُوء سلوك الناس معه إلى التمرُّد ونقد المجتمع ، واستقرَّ في نفْسه شعورٌ بأنه سجين لِفَقْدِ بصره .

الأَزْمَةُ الثَّانِيَة : وَفَاةُ وَالِدِهِ :

هو أبو محمد عبد الله ، وقد تُوُفِّي بحِمْص سنة سبع وسبعين وثلاثمائة [٤١] ، وكان أبو العلاء في الرابعة عشرة من عُمْره ، وهو في أشد الحاجة إلى حُنُوّه وعطفه ؛ إذ إنه كان له الأب والأستاذ معًا ، وقد رثاه بقصيدة وردت في ديوان (سِقْطِ الزَّنْد) ، يقول فيها : (الطويل)

مَضَى طَاهِرِ الجُثْمَانِ والنَّفْسِ وَالكَرَى وَسُهْدِ المُنَى وَالجَيبِ وَالذَّيلِ والرُّدْنِ [٤٢]

تكشف هذه الأبيات عن مدى حُبِّه لأبيه وتعلقه به ، ولا شك في أن فقده له في حداثة سِنِّه قد أحدث شرخًا في حياته ؛ فَغَلَبَ طابعُ التشاؤم عليه ، ونظر إلى مجتمعه نظرة متشائمة ، جعلته يتمرد عليه وينقده .

الأَزْمَةُ الثَّالِثَة : وَفَاةُ وَالِدَتِهِ :

والدته هي (بنت محمد بن سبيكة) تلك الأُمّ التي رفدت العربية بهذا الأديب العظيم ، وفي طريق أبي العلاء إلي المَعَرَّة عائدًا مِن بغداد سنة (٤٠٠هـ) بَلَغَهُ نَعْي أمِّه وكان في نحو السابعة والثلاثين من عُمْره ؛ فكان لخبر وفاتها في نفْس أبي العلاء سَورَةٌ عنيفةٌ ، وقد أنطقه الحُزْن بقصيدتينِ وَرَدَتَا في

(سِقْطِ الزَّنْد) رَثَى بهما أمَّه ، يقول في الأولى : (الكامل)

سَمِعْتُ نَعِيَّها صَمَّا صَمَامِ وإِنْ قَالَ العَوَاذِلُ لا هَمَامِ [٤٣]

ويقول في الأخرى : (الطويل)

مَضَتْ وَكَأَنِّي مُرْضَعٌ وَقَدِ ارْتَقَتْ بِيَ السِّنُّ حَتَّى شَكْلُ فَودَيَّ أَشْكَالُ [٤٤]

وقال : « حُزْنِي لِفَقْدِهَا كَنَعِيمِ أَهْلِ الجَنَّةِ كُلَّمَا نَفِدَ جُدِّدَ » [٤٥] ، وهذا – ولا شكَّ – يعكس مدى حُبِّه لأُمِّه ، وشدة حزنه على فقدها ، وهول المصيبة ؛ مِمَّا أَثَّرَ في نفسيته ، ونظرته إلى مجتمعه بعد ذلك .

د) التَّمَرُّدُ عَلَى المُجْتَمَعِ :

أولاً : عند الغَزَال :

التمرُّد « ظاهرة اجتماعية تنتج من سُوء التكيُّف مع قوانين المجتمع ، وعندئذٍ يجد الشاعرُ نفسَه غريبًا في محيط قاسٍ ؛ نتيجة لعدم تكيفه مع البيئة والمجتمع ، وكان عليه أن يتحدى المجتمع من خلال أساليب تتخذ طابع التمرد الفرديّ حينًا ، وتندمج في البؤر الثوريَّة الجماعيَّة حينًا آخر ، وقد ينكفئ على نفسه لائذًا بها ، هاربًا من الواقع ومعتزلاً المجتمع » [٤٦] .

وبهذا فالإنسان المتمرد إنسان عاجز عن مسايرة المجتمع بنظمه ونواميسه وقوانينه تلك التي « ألغت طموح الفرد ، ومنعته من تحقيق ذاته ورغباته ؛ مِمَّا أدى إلى الصراع بينه وبين مجتمعه إلى درجة العدوانية التي هي مظهر من مظاهر هذا التمرد ؛ فيرى الإنسان المتمرد أنَّ التمرد هو السلوك الذي يؤدي به إلى تحقيق الذات أولاً ، والراحة النفسية ثانيًا ، والتكيف الاجتماعيّ ثالثًا » [٤٧] .

« وهذا ما حدث مع الغزال الذي أصيب بالعُنَّة ، وشعر بعدها بالعجز ، فكان في حاجة إلى التقدير الاجتماعيّ ، وصَرْف وُجُوه الناس إليه ؛ حَتَّى يحس بأنه شيء مذكور ؛ ليعوض الشعور بالعجز الجنسيّ ، فاتخذ من التمرد والتحدى وسيلة للتنبيه على وجوده ، ووجد عقلُهُ الباطن في نقد المجتمع لذةً ليست بعيدة من اللذة الجنسية التي حُرِمَ منها ؛ فأخذ يتمرد على المجتمع لا سيما وأنه شاعر اجتماعي ساخر ، يعي قضايا مجتمعه ومشكلاته » (٤٨) ، وظهر ذلك جليًّا في الفترة (من سنة ٢١٨هـ إلى سنة ٢٣٦هـ) التي غلب على شعره فيه النقد الاجتماعيّ ؛ بغية الإصلاح الأخلاقي (٤٩) .

ثانيًا : المعَرّي :

نشأ المَعَرّي في أسرة اتَّصفتْ بالورع والتقوى والصلاح ؛ مِمَّا أكسبه أخلاقًا رفيعة ، وقد اتصف بالجُرْأَة فِي طَرْح آرائه وأفكاره .

وقد فسدت الأخلاق في المجتمع الذي عاش فيه إلي أبعد حدٍّ ، وساءت الصلات بين الناس أشدَّ السوء ؛ فانتشرت الرذائل ، وارْتُكِبت المُحرَّمات ، وفي رأي أبي العلاء لم يسلم أحدٌ مِن الفساد ؛ فقد أعدى الجميع : مِن حُكَّام وساسة ، وقضاة وفقهاء ، وأدباء وشعراء ، وقد رأى عالَمه مقلوبًا على رأسه ؛ حيث انعدمت فيه القيم والمعايير الصحيحة ؛ لذا بَرِمَ بالعالم كلَّه ؛ فقال في نفْس واحد ، يقول : (الطويل)

فَأُفٍّ لِعَصرَيهِم نَهَارٍ وَحِندِسٍ وَجِنسَي رِجَالٍ مِنهُمُ وَنِسَاءٍ (٥٠)

وكان لزامًا عليه أنْ يتمرَّد على المجتمع ؛ لإصلاح ما شاع فيه من الجَور والفساد ؛ فأخذ يُحذِّر من الناس الذين يُظْهِرُونَ عكس ما يُبْطِنُونَ ؛ لأنَّهُمْ يُخْفُونَ البغضاء ، وإن أظهروا التعظيم والإكبار ، لكنَّ نفْس أبي العلاء تختلف عن هذه النفوس ؛ لذا فَقَدَ التوافُق مع الآخرين .

***

وأَخرُج من المبحث الأول بنقاط التلاقي ومواضع الاختلاف بين الشاعرينِ فيما يتعلق بدوافع النقد الاجتماعيّ ؛ وأبدأ **بنقاط التلاقي** ؛ فكلاهما كان عزيز النفْس ، وهذه العِزَّة هي التي جعلت **الغَزَال** « يتبوأ في بلاط قُرْطُبَة الرسميّ على مدى نصف قرن أسمى مقام من النفوذ والثقة والتقدير مع أنه لم يكن من رجال الدولة الرسميين » (٥١) ، وهذه العِزَّة هي التي جعلت **المَعَرّيّ** يرفض مساعدة الآخرين له ، وقد ظهر هذا في حواره مع تلميذه إسماعيل التميميّ (ت٤٢٠هـ) الذي عرض عليه السفر معه إلى مصر للقاء واليها ؛ حيثُ رَدَّ عليه : « رَغَّبْتَنِي فِيهِ ، وزَيَّنْتَ لِي لِقَاءَهُ لولا أَنِّي في قيدين ، وقيدٌ واحدٌ منهما كافٍ : العمى والطبع ، العمى يا تميميّ مصيبة إذا رافقها طبعٌ سوداويٌّ كطبعي ، ما أنا أوَّل أعمى ، ولكني أوَّل رجُلٍ من العميان في هذه الغريزة آنف أنْ أقاد كالكبش ، ولا أغفر لنفسي زلةً أو تقصيرًا » (٥٢).

وكلاهما أحسَّ بالغربة النفسية والاجتماعية ، ورَفَضَ الانصياع وراء أهواء مجتمعه ، وكلاهما تمرَّد على المجتمع ؛ نتيجةً لعدم القدرة على التكيُّف والانسجام معه .

أما عن **مواضع الاختلاف** ؛ فكلاهما ، وإنْ تَعَرَّضَ لأزمةٍ كانت حدًّا فاصلاً بين شطرينِ من حياته ؛ فإنَّ طبيعة الأزمة قد اختلفت عندهما ؛ فأزمة **الغزال** هي إصابته بالعُنَّة ، وأزمة **المعري** كانت إصابته بالعمى إضافة لموت أبيه وأمه ، وهذه الأزمة التي تعرَّض لها الشاعران جعلت كُلاًّ منهما يشعر بقلق مصحوب بخيبة أملٍ فيمن حوله .

وهكذا نرى قواسم مشتركة بين الشاعرين تعكس طبيعة الحياة التي عاشها كلٌّ منهما ، وكذلك توجد بعض مواضع الاختلاف .

المَبْحَثُ الثَّانِي : الدَّوَافِعُ الخَارِجِيَّةُ :

أ) أثر الحياة الاجتماعية :

١ – فقدان العدالة الاجتماعية :

أولاً : الغَزَال :

ظهرت كثيرٌ مِن الظواهر غير المُرْضِية في المجتمع الأندلسي في عصر الإمارة ؛ فقد انعدم التوازن المنطقي بين الناس ؛ فالغني يسود ولو كان غبيًّا ، والفقير يتأخر ولو كان عالِمًا صالحًا ؛ فالغِنَى يُوَارِي كُلَّ عَيبٍ للغنيّ ، ويكفيه أنه على صورة بني آدم ، يقول : (المُتَقَارِب)

إِذَا كُنْتَ ذَا ثَرْوَةٍ مِنْ غِنًى فَأَنْتَ المُسَوَّدُ فِي العَالَمِ
وَحَسْبُكَ مِنْ نَسَبٍ صُورَةٌ تُخَبِّرُ أَنَّكَ مِنْ آدَمِ ! (٥٣)

وفي عصره تفاخَرَ الأغنياء على الفقراء ؛ لذا وجَّه الشاعرُ سهامَه لهؤلاء وانتقدهم ، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على النزعة الإنسانية التي تميز بها الغزال في نقده للمجتمع .

ثانيًا : المَعَرِّي :

ومِن مظاهر فساد الحياة الاجتماعيَّة في عصر المعري فقدان العدالة بين ؛ حيث انشرت الطبقية في عصر أبي العلاء ، ومع هذا التفاوت الطبقيّ مَنَعَ الأَغْنِيَاءُ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ ، وصمُّوا آذانهم عن استغاثة المساكين ؛ لذا انتشر الفقر ، وانعدمت أُسُس التكافُل الاجتماعيّ ؛ « ففي الوقت الذي ترى فيه فقيرًا يستقبل فصل الشتاء عاريًا لا يجد فيه ما يُدْفِئُهُ ؛ إذ بأمير يتدثر بِلِحَافٍ فوقه لِحَاف لا يَشْعُرُ بالبرد ، وفي الوقت الذي ترى فيه مسكينًا قد حُرِمَ قُوتَ

يَومِهِ ؛ إذ بمجدود تَكَدَّسَتْ أمامه أقوات أمة بأسرها » [٥٤] ، يقول : (الطويل)

لَقَدْ جَاءَنَا هَذَا الشِّتَاءُ وَتَحْتَهُ فَقِيرٌ مُعَرَّى أَو أَمِيرٌ مُدَوَّجُ

وَقَد يُرْزَقُ المَجْدُودُ أَقْوَاتَ أُمَّةٍ وَيُحْرَمُ قُوتًا وَاحِدٌ وَهْوَ أَحْوَجُ [٥٥]

واضحٌ أنَّ الثروةَ في عصر المعري استأثرَ بها أفراد معدودون ، وأكل الأقوياءُ حُقُوقَ الضعفاء ؛ مِمَّا جعله ينقد مجتمعه .

٢- الكُدْيَة :

أولاً : الغَزَال :

ظهرت طائفة الشحَّاذين الذين يُلحِفُون في السؤال في عصر الغزال ، وقد مَقَتَ الأندلسيون الرجل القادر علي العمل الذي يتسول ، ويظهر أنَّ السائل ألحَّ كثيرًا في الطلب من الغَزَال ؛ فلم يُعْطِه شيئًا ، يقول : (الخفيف)

قُلْتُ إِذْ كَرَّرَ المَقَالَةَ : يَكْفِي أَنْتَ أَولَى بِدِرْهَمِي أَمْ عِيَالِي؟

لَسْتُ مِمَّنْ يَكُونُ يَخْدَعُهُ مِثْـ لُكَ ، فَاعْلَمْ ، بِهَذِهِ الأَقْوَالِ

مَا أُؤَدِّي الزَّكَاةَ إِلاَّ كَمَا يُعْـ صَرُ زِقٌّ مُعَسَّلٌ بِالحِبَالِ [٥٦]

وقد نَصَحَ كلَّ سائل ألا يشكو إلى النَّاس ويستجديهم ، وينسى الله – تعالى– ؛ لأنهم لن يعطوه شيئًا ، يقول : (مجزوء الرمل)

فَاسْأَلِ اللهَ فَلا أَقْـ رَبُ مِنْهُ حِينَ يُدْعَى [٥٧]

يُسْدِي الغَزَالُ – في نقده للمجتمع – النصيحة لِكُلِّ مَنِ انْحَرَفَ عن الطريق المستقيم ، أو حاول الكسب بطرق غير مشروعة ، كسلوك سبيل الكُدية واتخاذها مصدرًا للرزق .

ثانيًا : المَعَرِّي :

ولقد نجم عن خلل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، وفساد الأحوال السياسية في عصر المعري ، ظاهرة الكُدْيَة ، وكَثُرَ المتسولون والشحَّاذون ، يقول مخاطبًا الشحَّاذ : (المتقارب)

قَطَعْتَ البِلادَ فَمِنْ صَاعِدٍ بِغَيثِ النَّوالِ وَمِنْ هَابِطِ
تَمُدُّ عَصَاكَ إِلَى النَّابِحَاتِ فَيُعْجَبنَ مِنْ جَأْشِكَ الرَّابِطِ
وَتَغبِطُ كُلاًّ عَلَى مَا حَوَاهُ وَمَا لَكَ فِي العَيشِ مِنْ غَابِطِ
وَقَفْتَ عَلَى كُلِّ بَابٍ رَأَيتَ حَتَّى نَهَاكَ أَبُو ضَابِطِ (٥٨)

وقد لاَمَ الشحَّاذين ، ودعاهم إلى السعي بدلاً من الشحاذة ، يقول : (البسيط)

فَالرِّزْقُ يَهْتِفُ يَا إِنسُ اعْمَلُوا وَكُلُوا يا أَيُّهَا الظَّبْيُ رِدْ يَا طَائِرُ الْتَقِطِ (٥٩)

ولا شكَّ في أنَّ هذه الظاهرة المنتشرة في المجتمع العباسيّ ؛ نتيجة سُوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية أدت إلى انتشار الفقر ؛ مِمَّا جعل المَعَرِّي يَنْقُدُ المُجْتَمَعَ ؛ رغبةً في إصلاحه .

٣- زَوَاجُ الفَتَاةِ الصَّغِيرَةِ مِنَ الشَّيخِ الكَبِيرِ :

أولاً : الغَزَل :

مِن الظواهر الاجتماعيَّة التي دفعت الغزال إلى نقد المجتمع ظاهرة زواج البنت الصغيرة من رجل كبير السن ذي مال وجاه ، وقد عبَّر الشاعر عن هذه الظاهرة بأسلوب الحوار القصصي بين البنت وأبيها ، يقول : (الوافر)

وَخَيَّرَهَا أَبُوهَا بَينَ شَيخٍ كَثِيرَ المَالِ ، أَو حَدَثٍ فَقِيرِ
فَقَالَتْ : خُطَّتَا خَسْفٍ وَمَا إِنْ أَرَى مِنْ حُظْوَةٍ لَلمُسْتَخِيرِ
وَلَكِنْ إِنْ عَزَمْتَ فَكُلُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِ الكَبِيرِ
لأَنَّ المَرْءَ بَعْدَ الفَقْدِ يَثْرَى وَهَذَا لا يَعُودُ إِلَى صَغِيرِ (٦٠)

في الأبيات نجد أنَّ الأب يُخيِّر ابنته بَينَ اثنينِ تَقَدَّمَا لِخِطْبَتِهَا ، الأول

كبير السن غني ، والآخر شاب فقير ، ومالت الفتاةُ إلى الشاب الفقير ؛ لأنها بحاجة إلى رجُل في مِثْلِ عُمْرِهَا ، والرجل الكبير لا يمكن أن يصبح صغيرًا ، وهذا ما تكرهه الفتاة (٦١) .

ثانيًا : المَعَرّيّ :

عبَّر المَعَرّي عن ظاهرة زواج الفتاة الصغيرة من الشيخ الكبير ببيان المفاسد التي تنشأ عن عدم التكافؤ العُمْرِي بين الزوجين ؛ مما يؤدي إلى انهيار الأسرة وتفككها ؛ فالفتاة تُؤثِرُ الزوج الشاب ، وَإِنْ كان فقيرًا على الهَرم ، وإن كان غنيًّا ؛ فهي أحوج إلى مَنْ تُدَاعِبُهُ وتُلاعِبُهُ منها إلى شيخ ؛ فَإِنَّهُ مَتَاعٌ لا غَنَاءَ فِيهِ ، يقول : (الطويل)

إِذَا خَطَبَ الزَّهْرَاءَ كَهْلٌ وَنَاشِئٌ ... فَإِنَّ الصِّبَا فِيهَا شَفِيعٌ مُشَفَّعُ
وَلا يُزْهِدَنْهَا عُدْمُهُ إِنَّ مُدَّهُ ... لأَبْرَكُ مِنْ صَاعِ الكَبِيرِ وَأَنْفَعُ
وَمَا لأَخِي سِتِّينَ قُدْرَةُ سَائِرٍ ... إِلَيهَا وَلَكِنْ عَجْزُهُ لَيسَ يُدْفَعُ
(٦٢)

فالغانية تكره زوجها الشيخ ، وترى أنه عديم الفائدة ؛ فالكساء عندها أنفع منه .

ب) أثر الحياة السياسيَّة :

أولاً : الغَزَال :

ازدهر النقد الاجتماعي الساخر عند الغزال في عهد عبد الرحمن الأوسط ، وعلى الرغم من أنَّ أيام هذا الأمير كانت أيام عافية وسكون (٦٣) ؛ فقد واجهته بعض الثورات والفتن الداخليَّة ؛ منها ثورة سليمان بن مرتين في مَارِدَة (Merida) عام ٢٢٠ هـ ؛ فخرج له عبد الرحمن بنفسه في جيشه ، وحاصره قبل أن يموت سليمان في حادث (٦٤) ، لتنتهي بذلك ثورته .

ولم يقف شعراء الأندلس صامتين إزاء هذه الفتن والثورات ؛ فنرى الغزال يَتَصَدَّى لنقد المجتمع ، والثورة عليه ، لا سيما أنَّ الأمير عبد الرحمن قد قرَّب بعض الفاسدين ، وجعلهم من أهل البلاط ، ومنهم نَصْر الخِصِيَّ ، المُكَنَّى أبا الفتح (ت٢٣٦هـ) ، الذي تَمَتَّعَ بأعظم نفوذ في القصر والدولة ، وكان مَرْهُوب الجَانِب يخشاه الأكابر والأصاغر[٦٥] ؛ فَغَرَّهُ مَنْصِبه ، وقُرْبُه من الأمير عبد الرحمن ؛ فكان يرهب الأندلسيين ، ويظلمهم ؛ وللأسف كان الأمير متسامحًا معه ؛ لنجاحه في إنجاز المهام التي يُكلَّف بها ؛ مِمَّا جعله يأمن العِقَاب ، وقد اتهمه الغَزَال بالجحود ووصفه باللاهي؛ فهو يعصي الله ويرتكب الكبائر ، وأَكَّدَ له أنه سيرحل عن هذه الدنيا ، وتوعده بعذاب الله ؛ فليس له عُذْر ، يقول : (الطويل)

أَيَا لاهِيًا فِي القَصْرِ قُرْبَ المَقَابِرِ يَرَى كُلَّ يَومٍ وَارِدًا غَيرَ صَادِرِ

سَتَرْحَلُ عَنْ هَذَا ، وَإِنَّكَ قَادِمٌ – وَمَا أَنْتَ فِي شَكٍّ – عَلَى غَيرِ عَاذِرِ[٦٦]

لقد حاول الغزال في الأبيات أن يقنع نصرًا أنَّ الجاه لا يدوم لصاحبه ؛ لذا فينبغي للإنسان إذا صار ذا جاهٍ أن يُحسن التصرف ، وألا يغتر بمنصبه ؛ لأنه سرعان ما سيزول .

ثانيًا : المَعَرّي :

نقد أبو العلاء السياسة والإدارة ورجالهما ؛ فالطامعون بمراتب الحُكم يصلون إليها – عادة – بطُرُق غير شريفة[٦٧] ، يقول : (الكَامِل)

فأميرُهُمْ نالَ الإمارةَ بالخَنَا وتَقِيُّهُمْ بِصَلاتِه مُتَصَيِّدُ[٦٨]

فإذا وصلوا تركوا شؤون العامة ، وانصرفوا عن مصالح الناس إلى لهوهم من عزف ونزف ، وما يتبعهما عادةً ، وهم في كل ذلك لا يغفلون عن جباية الأموال الضرورية ؛ لمساعدتهم على هذا اللهو ، يقول : (الوَافِر)

وَجَدْتُ النَّاسَ فِي هَرَجٍ وَمَرَجِ غُوَاةٌ بَينَ مُعتَزِلٍ وَمُرْجِي

فَشَأْنُ مُلُوكِهِم عَزْفٌ وَنَزْفٌ وَأَصْحَابُ الأُمُورِ جُبَاةُ خَرْجِ
وَهَمُّ زَعِيمِهِمْ إِنْهَابُ مَالٍ حَرَامِ النَّهْبِ أَو إِجْلالُ فَرْجِ (٦٩)

وقد تَبِعَ هذا التردّي السياسيّ ضَعْفٌ في الأوضاع الأمنية في الدولة ؛ حيث « أُبِيحَ فيها إراقة دماء الأبرياء ، وهَتْك أعراض المُخَدَّرات ، وسلب أموال الضعفاء ؛ فمنهم مَنْ كان يَسُرُّهُ رُؤيَةَ النار تلتهم الناس والمنازل والأثاث والمعاهد والحوانيت » (٧٠) .

إنَّ عناية المعري بالحياة السياسيَّة لم تجلب له إلا الحزن ، والأسى ، والحسرة ، والأسف ؛ فثار على الظُّلْم والظَّالِمِينَ (٧١) ، وأخذ يتمرد على المجتمع الذي يَعُجُّ بهذا الفساد .

***

وأخرج من المبحث الثاني **بنقاط التلاقي** بين الشاعرين ؛ فكلاهما عانى من فقدان العدالة الاجتماعية بين الناس ، ونَدَّد بصنيع الأغنياء الذين يبنون قبورهم بالرُّخَام ، في حين أن القبر لا يُفرِّق بين غني وفقير ؛ فالكلُّ سواءٌ بداخله .

وكلاهما نَدَّد بظاهرة الكُدْيَة ، ولام الشحاذين ، ودعاهم إلى العمل بدلاً من التَّسَوُّل ، والإلحاح في سؤال الناس .

وكلاهما رفض ظاهرة زواج الفتاة الصغيرة من الشيخ الكبير ، وقد تقاربت معانيهما – إلى حدٍّ كبير – في هذا الأمر .

الخاتمة ونتائج البحث

وبعدُ ، فلعلَّ في هذا القدر من الدراسة ما يكفي لرسم صورة واضحة المعالم عن دوافع النقد الاجتماعي الساخر بين الغزال والمعري ، ونستطيع أن نستخلص عِدَّة نتائج ، منها :

وجود علاقة وثيقة بين الأديب ومجتمعه ؛ فالأديب لا ينفصل عن المجتمع ، بل يرتبط به ارتباطًا وثيقًا ، ويتأثر بأحداثه السياسية والاجتماعية ، وهذا ما حدث مع الغزال والمعري ، فلم يقفا مكتوفي الأيدي إزاء فساد الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في عصرهما ، بل وقفا لها بالمرصاد في محاولة منهما للقضاء على فسادها ، وبهذا يكتسب الشعر قيمته الفنية .

لموضوع النقد الاجتماعي الساخر أهميةٌ قُصْوَى ؛ حيث إنه يُجَسِّمُ الأدواء التي تَنْخَرُ في جسد المجتمع في محاولة منه لوصف الدواء الناجح لها .

السخرية أحد أسلحة النقد الاجتماعيّ ، ولها دور فعَّال في إيقاظ العالم من سُبَاتِهِ ، وقد ظهرت بصورة واضحة عند الغزال والمعري ، ولم يكن الهدف منها الضحك والعبث ، وإنما هدفت إلى إصلاح المجتمع ، والقضاء على مظاهر الفساد .

وجود تبادل ثقافيّ بين بلاد المشرق والأندلس ؛ فكلاهما تأثَّر بالآخر وأثَّر فيه ؛ فقامت العلاقة بينهما على الأخذ والعطاء .

فساد الأحوال السياسية والاجتماعية ينتج منه ضياع الحقوق ، وانتشار الفقر ، وظهور التفاوت الطبقي في المجتمع ، ولجوء الناس إلى الكُدْية ، وهذا ما اتَّضح جليًّا في عصر الشاعرين ؛ مِمَّا حدا بهما إلى نقد المجتمع .

وانتهت هذه الدراسة إلى غلبة الظن بأنَّ المَعَرِّيّ المشرقي قد سَمِعَ عن الغَزَال الأندلسيّ ، أو قُرِئَ عليه بعض أشعاره على الأقل ؛ فأعجب به وحذا حذوه ؛ ومِمَّا يُؤَيِّدُ ذلك عُمْق الاتصال الثقافي بين المعريّ من جهة

والأندلسيين من جهة أخرى ؛ فنرى الحُضُور الأندلسيّ في ذاكرة أبي العلاء ؛ فقد كان يعرف بعض شعراء الأندلس ، ويقرأ أشعارهم ، ويَصْدُرُ رَأْيَهُ فيها ، ومن هؤلاء الشعراء ابن هانئ الأندلسي (ت٣٦٢هـ) ، الذي حَكَمَ عليه في (رسالة الغفران) بأنه من شعراء الأندلس المُجِيدينَ ؛ فما المانع أن يكون قد اطلع على شعر الغزال كما اطلع على شعر ابن هانئ ، والغزال يسبق المعري في الحقبة الزمنية .

وقد سَافَرَ كُلٌّ مِنْهُمَا إلى بغداد ؛ فقد سافر **الغَزَّال** إلى العراق بعد موت أبي نُوَاس (ت١٩٩هـ) بقليل على أثر حادثة هجائه لزِرْيَاب (ت٢٣٨هـ) ، ومن المعروف أنَّ **المعري** – أيضًا – سافر إلى بغداد (٣٩٨هـ – ٤٠٠هـ) ، ومكث فيها نحو سنتين ، فرُبَّما يكون قد سمع فيها عن الغزال ، واطلع على شعره ؛ فتأثر به .

الحواشي

(١) محمد رضوان الداية : في الأدب الأندلسي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، دار الفكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م ، ص١٧٣ .
(٢) انظر : المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
(٣) عبد الرحمن بن صالح العشماوي : علاقة الأدب بشخصية الأمة ، العبيكان للنشر ، الرياض ، ط ١ ، ٢٠٠٢م ، ص٢٩ - ٣٠ .
(٤) محمد محمود أبو علي : السخرية بين إشكالية الدلالة والتناول الفني ؛ دراسة نقدية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بنها ، العدد (٣٠) ، أكتوبر ٢٠١٢م ، ص ٢٧ .
(٥) زكي المحاسني : أبو العلاء ناقد المجتمع ، ص١٥٢ .
(٦) محمد محمود أبو علي : السخرية بين إشكالية الدلالة والتناول الفني ، ص ٣ .
(٧) على كاظم المصلاوي : أبو العلاء المعري والشعر العربي في الأندلس ؛ دراسة تحليلية في التأثير والتأثر ، رسالة دكتوراه ، كلية التربية (ابن رشد) ، جامعة بغداد ، العراق ، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م ، ص ٣٠ .
(٨) الغزال : شعر يحيى بن حكم الغزال ، جمع وتوثيق ودراسة علي الغريب محمد الشناوي ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٤م ، ص ١٢٢ .
(٩) المقري التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٨٣٣هـ - ١٩٦٨م ، ٢ / ٢٥٦ .
(١٠) انظر : مروة شحاته محمود الشقرفي : المَلامِحُ النَّفْسِيَّةُ فِي شِعْرِ الغَزَال ؛ رُؤْيَة الذَّاتِ نَمُوذَجًا ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بنها ، العدد الثالث والثلاثون ، يوليو ٢٠١٣م ، ملحق مستقل تابع للعدد ، ص ٥٤٦ – ٥٤٧ .
(١١) المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ٢٦١/٢ .
(١٢) انظر : محمد صالح البنداق : يحيى بن الحكم الغزال ؛ أمير شعراء الأندلس في القرن الثالث الهجري ، قدَّم له إحسان عباس ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط١، ١٩٧٩م ، ص ٤٢ .
(١٣) ابن العديم : بغية الطلب في تاريخ حلب ، حققه وقدَّم له سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت ، د . ت ، ٨٨٠/٢ .
(١٤) انظر : أبو العلاء المعري : رسالة الغفران ، تحقيق وشرح : عائشة عبد الرحمن ، سلسلة ذخائر العرب (٤) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٩ ، ١٩٩٣م ، ص ٤٧٢ – ٤٧٣ .
(١٥) الغزال : شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص ٢٠٢ .
(١٦) المعري : اللزوميات لشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء ، تحقيق أمين عبد العزيز الخانجي ، مكتبة الهلال ، بيروت ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، د . ت ، ٥٥/١ .
(١٧) انظر : مروة شحاته محمود الشقرفي : المَلامِحُ النَّفْسِيَّةُ فِي شِعْرِ الغَزَال ، ص ٥٢٤ - ٥٢٥ .

(١٨) الغزال : شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص ١٦٨ .
(١٩) الحميدي : جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، ص ٥٥٤ .
(٢٠) الغزال : شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص ١١٥ .
(٢١) محمد صالح البنداق : يحيى بن الحكم الغزال ؛ أمير شعراء الأندلس في القرن الثالث الهجري ، ص ١٦٢ .
٢٢() عمر فروخ : أبو العلاء المعري ؛ الشاعر الحكيم ، دار الشرق الجديد ، بيروت ، ١٩٦٠م ، ص٢٨ .
٢٣() المعري : اللزوميات ، ١/ ١٢٣ .
٢٤() انظر : حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي ، المطبعة البولسية ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٥٣م ، ص ٦٩١ .
٢٥() مروة شحاته محمود الشقرفي : الملامح النفسية في شعر الغزال ، ص٥٦٦ .
٢٦() الغزال : شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص٢٣٢.
٢٧() حامد عبده الهوال : السخرية في أدب المازني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ٢٦٢ – ٢٦٣.
٢٨() الغزال : شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص ٢٢٦.
٢٩() حسين جمعة : الاغتراب في حياة المعري وأدبه ، مجلة جامعة دمشق ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة دمشق ، سورية ، المجلد السابع والعشرون ، العددان الأول والثاني ، ٢٠١١م ، ص ٢٧ .
٣٠() المعري : اللزوميات ، ١/ ١٠٠.
٣١() ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م ، ٥١٢/١ .
٣٢() المعري : رسائل أبي العلاء المعري ، ص٩٠ .
٣٣() انظر : مروة شحاته محمود الشقرفي : الملامح النفسية في شعر الغزال ، ص٥٢٥ .
٣٤() الغزال : شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص١٦٦ – ١٦٧.
٣٥() محمد محمود أبو علي : النزعة الجنسية في شعر نزار قباني السياسي ، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية ، كلية التربية ، جامعة الإسكندرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، إبريل ٢٠١٩م ، ص ٢٧.
٣٦() ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ٢٩٥/١.
٣٧() ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م ،١١٣/١.
٣٨() الصفدي : الوافي بالوفيات ، ٧ /٦٣ .
٣٩() المصدر السابق ، ٦٣/٧- ٦٤.
٤٠() المعري : اللزوميات ، ٢ / ١١٩.

٤١() ياقوت الحموي : معجم الأدباء ، ١١٠/٢.
٤٢() انظر : أبو العلاء المعري : شروح سقط الزند ، تحقيق مصطفى السقا وعبد الرحيم محمود وعبد السلام هارون وإبراهيم الإبياري وحامد عبد المجيد ، إشراف طه حسين ، مركز تحقيق التراث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ط٣ ، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ، ٩٠٧/٢ ، ٩٤١ .
٤٣() انظر : أبو العلاء المعري : شروح سِقْطِ الزَّنْد ، ١٤١٣/٤ - ١٤٢٠ .
٤٤() انظر : المصدر السابق ، ٤/ ١٦٨٥- ١٦٨٩.
٤٥() المعري : رسائل أبي العلاء ، ص٨٩ .
٤٦() محمد راضي جعفر : الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر ؛ مرحلة الرواد ، منشورات اتحاد الكتاب العربي ، دمشق ، ١٩٩٩م ، ص٥ .
٤٧() زاوش رحمة : التمرد في السرد السير ذاتي النسائي العربي المعاصر ؛ سيرة نوال السعداوي أنموذجًا ، رسالة ماجستير ، جامعة السانيا ، كلية الآداب ، الجزائر ، ٢٠١٢م ، ص٥ .
٤٨() مروة شحاته محمود الشقرفي : الملامح النفسية في شعر الغزال ، ص٥٣٥.
٤٩() انظر : المرجع السابق ، ص ٥٣٣.
٥٠() المعري : اللزوميات ،١/ ٥٣.
٥١() محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، ص ١٦٠ .
٥٢() مارون عبود : أبو العلاء المعري زوبعة الدهور ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، د.ت ، ص ٧٦ .
٥٣() الغزال : شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص٢٢٥.
٥٤() كامل كيلاني : الوعظ القصصي ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، د.ت ، ص٣٦.
٥٥() المعري : اللزوميات ، ١٩٢/١.
٥٦() الغزال : شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص٢١٤.
٥٧() المصدر السابق ، ص١١١.
٥٨() المعري : اللزوميات ، ٧٨/٢ .
٥٩() المصدر السابق ، ٧٦/٢.
٦٠() الغزال : شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص ١٨١.
٦١() زياد طارق جاسم : مَلامِحُ النَّقْدِ الاجْتِمَاعِيِّ فِي شِعْرِ يَحْيَى بْنِ حَكَمِ الغَزَالِ ، ص٣٨٣ .
٦٢() المَعَرِّي : اللزوميات ، ٨١/٢ .
٦٣() انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ، ٦ /١١٧.
٦٤() انظر : ابن عذَارِي المَرَّاكُشِيّ : البَيَان المُغْرِب فِي أخبار الأندلس والمَغْرِب ، تحقيق ومراجعة ج . س . كولان وإ. ليفي بروفنسال ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط٥ ، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ، ٨٤/٢ .

٦٥() انظر : محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ؛ من الفتح إلى بداية عهد الناصر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط٤ ، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ، ٢٧٧/١ .
٦٦() الغزال : شعر يحيى بن حكم الغزال ، ص ١٧٠ .
٦٧() عمر فروخ : أبو العلاء المعري الشاعر الحكيم ، ص ٩٦.
٦٨() المعري : اللزوميات ، ١ / ٢٤٩.
٦٩() المصدر السابق ، ١/ ٢٠٤.
٧٠() محمد سليم الجندي : الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره ، ١٦٤٤/٣ – ١٦٤٥.
٧١() طه حسين : تجديد ذكرى أبي العلاء ، ص ٦٥ .